مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد السابع عشر، العدد الأول، ص39- ص64 يناير 2009
ISSN 1726-6807, http://www.iugaza.edu.ps/ara/research/

ملامح الشخصيَّة الإسلامية في شعر الزُّهد والتَّصوُّف في العصر المملوكي

أ.د.نبيل خالد أبو علي و **د. سميح مصطفى الأعرج**
أستاذ الأدب والنقد – الجامعة الإسلامية — رئيس قسم التقنيات التربوية
نائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني — **مديرية التربية والتعليم - طولكرم**

ملخص: لم يظلم عصر في تاريخه وأدبه مثلما ظلم عصر المماليك ، حيث عقدت له محاكمة جائرة متسرعة استناداً إلى أفق ضيق ، وتعصب أعمى ، عبر دراسات انتقت جوانب منه فدرستها، إضافة إلى ما شاب هذه الدراسات من نزعات إقليمية، وأحكام جاهزة مسبقاً ، أدت إلى ظلم هذا العصر - كما نعتقد - ، فغضَّت من قيمته ودوره في تاريخ الأمة ، فوصمته بالانحطاط والتخلف تارة، وبالعقم والجمود تارة أخرى ، بالرغم من غنى شعر هذا العصر وتنوعه وكثرة شعرائه واختلاف عروقهم ، ومشاربهم، والموضوعات التي تناولوها ، على مدى حوالي ثلاثة قرون (648هـ- 923هـ).

تكالب على الأمة الإسلامية في عصر المماليك أعداؤها من كل حَدَب وصوب كما يتكالبون عليها في أيامنا ، وكأن التاريخ يعيد نفسه ، وكأن بساحة المعركة تمتد من زمانهم إلى يومنا ، فعسى أن يمن الله علينا بقادة أفذاذ ، مثل قطز وبيبرس وقلاوون ؛ ليحموا الأمة ، ويعيدوا لها عزتها ، كما منَّ الله على الأمة بهم في عصر المماليك ؟! فأمة أنجبت هؤلاء وقبلهم صلاح الدين وخالد بن الوليد قادرة على أن تنجب مثلهم من جديد، و نأمل في دراستنا هذه أن نساهم في صقل الوجدان الجماعي للأمة في مستقبلها، لتحقق هدفها بإذن الله.

The Qualities of Muslims Portrayed in the poetry of Sufism and Asceticism of the Mamluki Age

By: Nabil Abu Ali & Sameeh Elaraj

Abstract: Many misconceptions have been made about the Mamluki age history and literature. Researches which dealt with this age were mostly selective and biased subsequently leading to passing ill judgments such as corruption, backwardness and idleness. This took place despite the fact that poetry of the Mamluki age rich with a diversity of poets who tackled a wide range of issues in their poetry for three centuries (from 648 Hijri- 923Hijri). The aim of this research is to attempt to cultivate the scruples of the Muslim Ummah so they may bring up great heroes like Salah Eldin, Qutuz and Khalid Bin Alwaleed.

Key Words: (Mamluki Age, Poetry, Misconceptions).

مفهوم الشخصية الإسلامية:

دلت كلمة شخْص في معاجم اللغة على معانٍ متعددة ، فالشخص : "سوادُ الإنسان وغيـره ، تراه من بعيد"[1]. و"الشَّخْصُ : جماعةُ شَخْصِ الإنسان وغيره ، مذكر"[2].
وهي في المعجم الوسيط - وهو معجم حديث – تدل على "كُلِّ جسم له ارتفاعٌ ، وظُهورٌ، وغَلَبَ في الإنسان"[3].

أما كلمة "شَخْصِيَّــة" فلا نجد لها ذكراً في المعاجم القديمة ، لا نَحْتَاً ولا اشْتِقاقاً ولا تَصْرِيفاً ، وهي كمفهوم يدل على الذات الإنسانية بمجمل أبعادهـا ، أو بمفهومهـا النفســي الحــديث[4]. والشخصية مصدرٌ صناعيٌّ وليد المصطلحات النفسية[5]، وهي كلمة محدثة تعني : "صفات تُميِّز الشخص من غيره ، ويقال: فلان لا شخصية له : أي ليس فيه ما يُميِّزه من الصفات الخاصة"[6].

اختلف علماء النفس وعلماء الاجتمـاع فيما بينهم في تعريف "الشخصية" وفي رسـالتها حول الشخصية الأندلسية أثبتت الباحثة عبير شرير[7] مجموعة من التعريفات المختلفة التي يمكن الرجوع إليها ، وهي إما صفات تميز شخصاً عن غيره[8] ، وإما صفات تدل على الخصـائص البدنية والعقلية التي تميز إنسانا عن آخر[9]. وقد قام ألبورت G. Allport بتصنيف أكثر من مئة تعريف للشخصية في ثلاثة أقسام عامة يحسن الرجوع إليها[10].

---

(1) ابن منظور: اللسان، مادة (شخص). وانظر: الفيروز أبادي: القاموس المحيط ، والجوهري: الصحاح في اللغة ، والزبيدي : تاج العروس، مادة (شخص).

(2) قال عمر بن أبي ربيعة : **فكانَ مِجَنِّي، دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي ثلاثُ شُخُوص: كاعِبانِ و مُعْصِرُ**
فإنه أثبت الشَّخْصَ، أراد به المرأة . انظر: عمر بن أبي ربيعة: شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 3، دار الأندلس، بيروت، 100. وفي اللسان برواية ثلاثَ .

(3) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربيَّة، دار إحياء التراث العربي، بيروت (شخص).

(4) انظر: نزار العاني: الشخصيَّة الإنسانية في التراث الإسلامي، ط 1، دار الفرقان، عمان 1998، 40.

(5) انظر: أحمد سيد محمد: الشخصيَّة الإسلامية في الأدبين الفاطمي والأيوبي. ط 2، دار المعارف، القاهرة، 7 .

(6) المعجم الوسيط :(شخص).

(7) انظر: عبير سفيان شرير: الشخصيَّة الأندلسية في تراث الموحدين الشعري، رسالة ماجستير 2004، 5 وما بعدها .

(8) انظر: ريتشارد لازاروس: الشخصيَّة، ترجمة، سيد محمد غنيم، ط 4، دار الشروق القاهرة، 1953، 48 ، 49 .

(9) انظر: الأداء القاموسي العربي الشَّامل، إعداد هيئة البحث والترجمة بدار الراتب الجامعية، المشرف العام راتب أحمد قبيعة، بيروت، ط 1، 1977، 319.

(10) انظر: واصف أبو الشباب: شخصيَّة الفلسطيني في الشعر العربي المعاصر، 11. وانظر : حلمي المليجي:علم النفس المعاصر، دار النهضة العربيَّة، بيروت، 1972، 309.

وإلى جانب المدلول الفردي لكلمة الشخصية ، فإن علم النفس الاجتماعي نظر إلى مدلول الشخصية نظرة أعم ، وأطلقها على مجموع الأفراد في مجتمع ما ، وإن أكد عدم انخراط الجميع في ذلك المدلول[1]. والنمط الاجتماعي للشخصية يمثل "السمات الغالبة في شخصيات الأفراد ، والاستجابات الاجتماعية المقننة التي يمكن توقعها من أكبر عدد من الأفراد ، وليس معنى هذا أنه لا يوجد من بينهم من يشذ عن هذا الواقع أو يحيد عن المسلك الوسيط "بالمعنى الإحصائي المعروف"[2] ، وهذا هو ما يسمى بالشخصية القومية[3]. والشخصية القومية "تشير إلى نمط الشخصية الذي يظهر بأكبر قدر من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية في مجتمع محدد"[4]، والبناء الأساسي للشخصية "يشير إلى تشكيل الشخصية التي يشترك فيه غالبية أعضاء المجتمع ، نتيجة للخبرات التي اكتسبوها معاً"[5].

وكما أن هناك شخصية فردية فهناك شخصية جماعية وشخصية أمة ، وهي تختلف باختلاف الأفراد والأمم ، فلكل "رد شخصية تميزه عن غيره من الأفراد حتى ضمن الأسرة الواحدة ، ولكل جماعة صغرت أم كبرت شخصية تميزها عن غيرها من الجماعات أو الأمم.

وكما أن شخصية الفرد تتحدد من سلوكيته الناشئة من تفاعل نفسيته تفاعلاً إيجابياً أو سلبياً مع فكره ، كذلك فإن شخصية الجماعة تتحدد بمدى توافق سلوكيتها مع شعاراتها ومبادئها ، وكذلك فإن شخصيتها تتكون من تفاعل نفسيتها العامة مع فكرها ، واللغة – هي- التي تعبر عن هذا التفاعل ، وما الحضارة والثقافة إلا نتاجاً لهذا التفاعل وهذا التعبير . وتكون شخصية الأمة متزنة متكاملة إذا كان التفاعل ايجابياً ، وتكُون شخصيتُها غير متزنة إذا كان التفاعل سلبياً ، ولا تكون للأمة شخصية إذا لم يكن لها فكر (أيدلوجياً) بل لا تتكون الأمة بدون فكر ، ولا تكون سوى جماعة بشرية تدور في فلك من الأفلاك ، أو تنصهر فيما بعد بشخصية من الشخصيات"[6].

ويعرف محمد المدرِّس الشخصية بأنها : "الأوصاف والسمات التي تميز نظاماً معيناً ، إذا كان النظام منبثقاً عن عقيدة مميزة ، وبالنسبة للمنفِّذ (أي الفرد) : هي السلوك المميز الموافق للعقيدة المميّزَة التي يحملها ويؤمن بها ذلك الشخص . فالشخصية التي يدور حولها تخص أمرين

---

(1) انظر: أحمد سيد محمد: الشخصيَّة المصرية، 8. وانظر سعد جلال: المرجع في علم النفس، 522 .

(2) حامد عمار: في بناء البشر، القاهرة، 1968، 78 .

(3) انظر: سامية حسن الساعاتي: الثقافة والشخصيَّة، بحث في علم الاجتماع، ط 3، دار الفكر العربي، القاهرة، 202.

(4) انظر: السابق :253 .

(5) السابق :243 .

(6) انظر : إبراهيم يحيى الشِّهابي: الشخصيَّة العربيَّة، ط 1، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، 1981، 41 .

عظيمين ؛ (نظام ، ومن يطبقه) ، فعلى هذا لا يكفي لاعتبار عقيدة ما أنها ذات شخصية مميـــزة إذا كانت تفسيراتها قاصرة على ما بعد الحياة ، ولم تعالج شؤون الحياة ، إذ لا نظام سينبثق عن هذه العقيدة"[1].

وقد استخدم الأستاذ أحمد لطفي السيد مصطلح الشخصية بدلالتها الفردية والجماعيـــة ، وذهب إلى أن "العناصر المؤثرة في كليهما عناصر مترابطة ، فشخصية الإنسان المعنوية تتألف من معتقداته الدينية والاجتماعية والسياسية ، أي من آرائه في الحياة ، فإذا كان ناقص الشخصية فجدير ألا يكون صالحاً لعمل نافع ، وكما أن شخصية الفرد هي الشرط لوجود العمل ، وإنجاحه في الحياة الحديثة ، لأنها مناط الثقة به ، ولصلاحيته لتأليف مجموع عامل مفيد ، كذلك شخصية الأمة هي الأساس الأول لرقيها ، بوصف أنها أمة ، لأن شخصيتها هي أساس احترامها في عين غيرها، وهي مجمع خصائصها القومية ، وعقد عاداتها وأخلاقها ، وبالجملة هي مجمع مقوماتها بوصف أنها كائن طبيعي حي مستقل بوجوده عما عداه[2].

وقد حدد العشماوي شخصية الأمة الإسلامية بأنها "كيانها المستقل المبنى على الإيمـــان بـــالقيم والمبادئ المستمدة من كتاب الله ، وسنة رسوله ρ ، وسيرة السلف الصالح ، وهي بهذا المعنـــى شخصية مستقلة تقوم على ثلاث حقائق مهمة ، لا حياة للأمة الإسلامية ، ولا شخصية لها بدونها، ألا وهي : حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية لله ، والصلة بين العبد وربه ، وهذا ما تتحقق بـــه الفطرة السليمة[3] التي قال عنها رسول الله ρ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ .."[4] ، ثـــم يقول : "اقرؤوا "فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم"[5].

إن شخصية الأمة الإسلامية المبنية على الإسلام ، شخصية واضحة المعالم ، تستمد وضوحها من وضوح الإسلام[6]، الذي قال عنه الرسول ρ فيما رواه مالك بن أنس : "تركت فيكم أمرين لـــن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله"[7].

---

(1) محمد محمود المدرِّس: الشخصيَّة الإسلامية وموقعها اليوم بين النظم والعقائد، دار البشير، عمان، 1993، 27 – 28 .
(2) أحمد لطفي السيد: المنتخبات، مطبعة الأنجلو المصرية (ب.ت) ، 1 / 26 .
(3) عبد الرحمن العشماوي: علاقة الأدب بشخصيَّة الأمة، 21 .
(4) محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح المختصر. تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3 سنة 1987، 456/1 .
(5) سورة الروم :الآية 20 .
(6) عبد الرحمن العشماوي: علاقة الأدب بشخصيَّة الأمة، 21 .
(7) انظر جامع الأصول 1 / 277 .

فللأمة الإسلامية شخصية ذات سمات خاصة بها ، دون سائر الأمم ، وقد عبر عنهـــا القــرآن الكريم في قوله تعالى : "كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكــر وتؤمنون بالله"[(1)].

وهذه الشخصية تعتمد على عقيدة الإسلام ، فالإسلام "يُكَــوِّن الشخصــية الإســلامية بالعقيــدة الإسلامية، حيث فيها تتكون عقليته ، وبها تتكون نفسيته ، فالعقلية الإسلامية هي التي تفكر على أساس الإسلام ، أي تجعل الإسلام وحده المقياس العام للأفكار عن الحياة"[(2)].

وهذه الشخصية الإسلامية هي الشخصية التي وصفها الله في القرآن الكريم ، إذ قال ســبحانه : "محمد رسول الله والذين معه ، أشداء على الكفار، رحماء بينهم"[(3)].

وعلى مدى الزمن ، اختزنت الأمة الإسلامية مميزات دينها ، فصارت تمثل في ذاتهــا ذلك التراث الضخم الذي ورثته عن الآباء والأجداد عبر قرون طويلة[(4)].

واللغة والفكر ضروريان لتشكيل شخصية الأمة ، "وبدون الفكر واللغــة لا تتكــون شخصــية حضارية لأمة من الأمم ، فأية جماعة بشرية لا يمكن اعتبارها أمة تتميز عن غيرها ، ما لم يكن لها فكر ولسان يعبر عن هذا الفكر"[(5)] . وكذلك كان ، فلسان المسلمين في مصر والشَّام لســان عربي ، وفكرهم فكر إسلامي ، ومن تلاقح الفكر واللسان تتشكل شخصية الأمة ، هذه الشخصية التي لا يمكن أن تتكون إلا بتفاعل عنصريها : الفكر واللغة ، تفاعلاً مناسباً ، "وبهــذا المفهــوم ينطبق مفهوم الشخصية على مفهوم الأمة الذي ورد في القرآن الكريم ، ويغدو هذا المفهوم أوسع نطاقاً وأكثر شمولاً من مفهوم الأمة عندما يكون مرادفاً لمفهوم القومية"[(6)]، لتصبح "الرابطة بين الناس رابطة الفكر واللغة بدلاً من رابطة العرق واللون والجنس وغير ذلك.."[(7)] ، حيث "انتقلت الأمة العربيَّة بالإسلام من شعب بمستوى المجتمع القبلي إلى مجتمع أمة ، ومن الفكر البدائي إلى الفكر الإسلامي المنطلق من عقيدة كلية عن الكون والإنسان والحياة ، لها أفكارهــا وتشــريعها

---

(1) سورة آل عمران :الآيتان 110-111 .

(2) فتحي أسعد نعجة: الشخصيَّة الإسلامية في شعر المتنبي، ط 1، 10 .

(3) سورة الفتح: آية 29 .

(4) عمر سليمان الأشقر: معالم الشخصيَّة الإسلامية، ط 7، دار النَّفائس، عمان، 2000، 13 .

(5) إبراهيم الشِّهابي: الشخصيَّة العربيَّة، 16.

(6) إبراهيم الشِّهابي: الشخصيَّة العربيَّة:20 .

(7) السابق 20 .

وأنظمتها الشَّاملة، لكل شؤون حياة الفرد والمجتمع والدولة فضلاً عن كونها قابلة لاحتواء عـدة قوميات ضمن إطار الأمة الواحدة ، كالفارسية والهندية والأسبانية"[1].

لقد صهر الإسلام هذه الأمم كما صهر المماليك ، ووحدهم مع العرق العربي في بوتقته ، ليتم معنى قوله تعالى : "يا أيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلنـاكم شـعوباً وقبائـلَ لتعارفوا ، إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم"[2]، وهذا التعارف بين الأجناس والأقوام والقبائـل أعطـى الأمة الإسلامية حيويةً عظيمةً ، وتنوعاً في القيادة ساعدها في مواجهة أعدائِها فـي المشـرق والمغرب[3]. والتعارف هنا هو : "التفاعل الحضاري الإنساني بين مختلف الشخصـيات ، ودون حصر أو تمييز ، بدلالة افتتاح الآية بخطاب الناس ، وليس فئةً أو جماعةً أو قوماً معينـين"[4] ، ولم يخصص الله سبحانه عرقاً أو جماعة محددة في قوله : "الحمد لله رب العالمين"[5] ، بل شمل العالمين كلهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : "الخلق كلُهم عيالُ الله ، وأحبُهم إلى الله أنفعُهـم لعياله"[6]، ليكون المسلمون "خير أمة أخرجت للناس"[7].

وعليه فالحديث عن شخصية قومية مصرية ، أو شخصية عربية ، أو شخصية فارسية ، مقطوعاً عن الفكر الذي تحمله حديث غير دقيق ، لأن الإسلام قد احتوى كل من آمن به وحملَهُ رسالَةً ، فصارت كلُّ الشخصيات شخصيةَ اللغة المهذبة بالفكر ، القائمة عليه ، ألا وهي اللغة العربيَّـة والدين ، وكل مسلم يسعى جاهداً أن تكون لغته هي اللغة العربيَّة مندفعاً ذاتياً اختيارياً لا إكـراه فيه، بل رغبة شديدة لاستكمال إيمانه ودينه، وتعميق فهمه لفكره"[8] ، قال تعالى : "إنـا أنزلنـاه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون"[9] ، ومن هنا جاء تبني الشعوب الإسلامية للغة العربيَّة ، بها يكتبـون ويفكرون ، ويشهد على ذلك كثير من المؤلفات لمسلمين ليسوا عرباً ، وباللغة العربيَّة لغة الفكر الإسلامي كما نص القرآن الكريم.

---

(1) السابق 154 .

(2) سورة الحجرات: آية 13 .

(3) غازي التوبة: الأمة الإسلامية بين القرآن والتاريخ، ط 1، دار البشير، عمان، 1999، 160 .

(4) إبراهيم الشِّهابي: الشخصيَّة العربيَّة، 25 .

(5) سورة الفاتحة آية،1.

(6) الصحيحان .

(7) سورة آل عمران: آية، 110 .

(8) إبراهيم الشِّهابي:الشخصيَّة العربيَّة، 26-27 .

(9) سورة يوسف : الآية 2 .

العوامل المؤثرة في تشكيل الشخصية الإسلامية:

تداخلت مجموعة من العوامل في تشكيل الشخصية الإسلامية في عصر المماليك، تمثلت في العوامل البيئية ، إضافة إلى العوامل السياسية والعسكرية ، والاجتماعية والاقتصادية ، و العمرانية.

فقد انعكس أثر البيئة المعتدلة في مصر والشام في بناء الشخصية الإسلامية المعتدلة ، التي صقلها الإسلام ، بالرغم من اختلاف الأعراق والمنابت ، فكان لها أثرها في بناء الشخصية الوحدوية المتدينة للأمة ، كما ساعد موقعها الجغرافي في وسط العالم على تشكيل هذه الشخصية الإسلامية ، لأنها كانت هدفاً للغزاة ، الذين استهدفوا دينها وعقيدتها فهبت تدافع عنهما ، وفي الوقت ذاته كان لهذا الموقع أثره في تشكيل الشخصية الإسلامية مستفيدة من أهميته في التبادل التجاري والثقافي.

أما العوامل السياسية والعسكرية فقد تركت آثارها في تشكيل الشخصية الإسلامية، الوحدوية المتدينة الجهادية ، من خلال عمل المماليك على توحيد الأمة في مواجهة العدو، وإحياء الخلافة ، وتربية المسلمين تربية جهادية ، وحدوية ؛ لحماية دين الله ، وأرضه ، فتعالى المسلمون على خلافاتهم ، وذابت العصبيات العرقية في الأمة وتقبل المسلمون الحاكم (غير العربي) ما دام مسلماً ، ووجدوا في المماليك مخلصين لهم .

وكان للعوامل الاجتماعية والاقتصادية أثرها في تشكيل الشخصية الإسلامية ، فاجتماعياً حلت الرابطة الإسلامية محل رابطة الدم ، فصدر المسلمون عنها في أعمالهم وأفكارهم وحياتهم، وكان للعوامل الاقتصادية أثرها في تشكيل الشخصية الإسلامية من خلال الحرص على مصالح المسلمين وحماية تجارتهم وتوظيف اقتصاد الأمة وثرواتها ليكون اقتصاداً مجاهداً ، حيث حرص السلاطين على بناء مرافق الدولة الاقتصادية ، وبناء الجسور والطرق والقنوات .

ومثلما كان للعوامل السابقة أثرها في تشكيل الشخصية الإسلامية ، كان للعوامل العمرانية أثرها في بناء الشخصية الإسلامية ، من خلال ربط الفنان المسلم بين الفكر الإسلامي وعادات الناس واحتياجاتهم بمعالجة معمارية ، تبدت في المسكن والبناء المعماري الحربي للدفاع عن دين الله و بلاد المسلمين .

التدين والشعر الديني في العصر المملوكي:

غلبت الروح الدِّينية على حياة الناس في العصر المملوكي ، وطغت فيه العاطفة الدِّينية على ما سواها ، هذه العاطفة التي أشعلت نارها الحروب المقدسة التي خاضها المسلمون ضد الصَّليبيِّين القادمين من الغرب ، باسم الصليب وتحت رايته ، مخفين خلفه مطامعهم الاقتصادية

والسياسية... وبتحالف ودعم من الممالك الصليبية التي كانت ما تزال قائمة في بلاد الشام ، إضافة إلى بقايا النصارى واليهود في البلاد ، الذين انحازوا إلى الصَّليبيِّين ، فاستأسدوا على المسلمين ، واتفق كل هذا مع ما يلقاه المسلمون في الأندلس - في تلك الأثناء- على أيدي الفرنج هناك.

ومما زاد هذه الروح اتقاداً غزوات التَّتار على البلاد الإسلامية ، وجحافلهم التي اجتاحت عاصمة الخلافة الإسلامية ببغداد ، عام 656 للهجرة ، وما رافقها من تحالف مع الصَّليبيِّين الغزاة وبقايا النصارى واليهود في بلاد الشام.

كما أن المصائب التي حلّت بالمسلمين ، والكوارث الطبيعية التي نزلت بهم ، من زلازل وأمراض وجدب ، وظلم وتعسّف بعض الحكام أحياناً ، حفزت المسلمين على العودة إلى الله ، يطلبون عونه ونصره ورفع الغمة عنهم ، ينشدون بذلك الأمن والطمأنينة والسكن الروحي . فقد اضطربت نفوسهم ، وبلغت القلوب الحناجر ، ولا ملجأ إلا الله ، فابتهلوا إليه لينجيهم مما هم فيه، لذا فلا عجب أن انتشر الشعر الدِّيني في هذا العصر انتشاراً واسعاً ، وتعدّدت ألوانه ، ما بين زهد وتصوّف من جهة ، ومدائح نبوية من جهة أخرى ،وستقتصر دراستنا هذه على شعر الزهد والتَّصوُّف.

تغنّى الشعراء بالشعر الدِّيني ابتغاء مرضاة الله ، فدعوا إلى الجهاد في سبيله ، انتصاراً لدينه ودفاعاً عنه ضد خصومه وأعدائه ، وحماية لأرضه ، فالعصر عصر جهاد ، والمسلمون كل يأخذ دوره في الجهاد دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ، يقاتلون بأموالهم وأنفسهم وسيوفهم ، وكل ما توفر لديهم من وسائل قتالية في ذلك العصر ، في حين استل الشعراء ألسنتهم سيوفاً يقاتلون بها ، ويحثّون المسلمين على البذل والتضحية والجهاد ، ويهاجمون الغزاة ، ويقلِّلون من شأنهم ، ويمجِّدون المسلمين وأبطالهم وانتصاراتهم ، ويبثّون الأمل فيهم ، ينصرون الله فينصرهم ، ويُحْيُون في الأمة العزة والصبر . وكان من المسلمين أيضاً من قاتل بقلبه ، ففزع إلى ربه مخلصاً له الدِّين ، يبتهل إليه لينصر المسلمين، ويكفَّ شر الغزاة عنهم ، حاثّاً إياهم على الصَّلاح طريقاً للخلاص مما هم فيه ، تحقيقاً للسكن الروحي ، وموازنة للخطر الخارجي عليهم .

والشعر الدِّيني من أقرب ألوان الشعر إلى أفئدة الناس ، لصلته بروح الإسلام ، فكان الشعراء يكثرون من الحديث إلى المسلمين عن العمل الصالح والتقوى ، وعبادة الله ، والنسك والأمل في جنته ونعيمه ، والخوف من ناره وجحيمه ، والقناعة بما قسم الله ، ورفض متاع الحياة الزائل ،

والاقتناع بالمعيشة المتقشفة[1]، يذكّرون الناس بالموت ، وما بعد الموت من الحساب والثواب ، والعقاب ، في قالب روحي جميل ، يمسّ شغاف النفس الإنسانية ، ويلامس الأفئدة المولعة بحب الله ورسوله . وسنتناول في حديثنا هنا ملامح الشخصيَّة الإسلامية في شعر الزُّهد أولاً ، يليه حديثنا عن ملامحها في شعر التصوف .

أولاً: ملامح الشخصيَّة الإسلامية في شعر الزُّهد

زَهَدَ في الشيء لغة : رغب عنه[2]، والزُّهد اصطلاحاً : "أسلوب في الحياة يدعو إلى العزوف عن الدُّنيا بكل لذائذها"[3] مع توافرها وإمكانية تحقيق الغاية منها ، والزاهد الحقيقي هو "الإنسان الذي تكون لديه القدرة على الاستمتاع بمباهج الحياة ، والقدرة على تركها ، والإعراض عنها ، ذلك أن الأصل أن يزهد الإنسان فيما يملك ، فإن لم يكن يملك شيئاً ، فعلى أي شيء تكون الزهَّادة ؟!"[4].

اتخذ الزُّهد في العصر العباسي شكل ظاهرة واضحة ، تعبيراً عن استنكار الناس للبذخ والفجور ، والتكالب على الحياة المادية ، وبروز ظواهر الزندقة والإلحاد ، فانصرف الزهَّاد إلى زواياهم يتعبّدون ، وصار الزُّهد مدرسة تحمي الأخلاق ، وتصون الدِّين ، وترفع المعنويّات[5].

وفي عصر المماليك اشتهر الزُّهد والتصوّف حتى صار السمّة الغالبة عليه وعلى شعرائه ، بل ازدادت الحاجة إليه في هذا العصر كنوع من الهروب من الواقع من جهة ، و نتيجة للعوامل الدِّينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي وسمت هذا العصر بميسمها من جهة أخرى ، والتي انتشر الشعر الدِّيني بسببها في هذا العصر ، فلاذ الناس بالدِّين إلى رحاب الله ، وقد شجع العلماءُ والشعراءُ عامة المسلمين على هذا الاتجاه بتعبئتهم بسيرة الأوَّلين والصالحين ، والزهَّاد السابقين ، وتحفيزهم للسير على منوالهم ، ونيل مرتبتهم . وهم في هذه التربية الجهادية للأمة لا يبغون إلا وجه الله ونيل رضاه ، فما دام المسلم على سفر في هذه الدُّنيا نحو الآخرة ، فعليه أن

([1]) شوقي ضيف: الشعر وطوابعه، 148.

([2]) الزمخشري : أساس البلاغة، مادة زهد، وهي بفتح الهاء وضمها وكسرها. وانظر: الزبيدي: تاج العروس، (زهد)، حيث قال الزُّهد: "اخذ اقلّ الكفاية، مما تُيُقِّنَ حِلَّه، وترك الزائد عن ذلك لله تعالى .

والمعجم الوسيط (زهد): زهد في الشيء، أعرض عنه، وتركه، لاحتقاره أو لتحرّجه منه، أو لقلته، ويقال زهد في الدُّنيا: ترك حلالها مخافة حسابه، وترك حرامها مخافة عقابه".

(3) محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ط دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، 510/2 .

(4) محمد كامل حتّة: القيم الدِّينية والمجتمع، ط دار المعارف، (ب . ت)، 82 .

(5) محمد التونجي: المعجم المفصّل في الأدب، 511/2 .

يتزوّد بالتقوى والعمل الصالح استعداداً للقاء ربه ، فهو يجاهد نفسه الجهاد الأكبر لتربيتها على جهاد العدو، والقتال في سبيل الله ، فقد كان يرى الزهَّاد والمتصوِّفة من تمام زهدهم وتصوُّفهم أن يجاهدوا العدو(1)، ويرابطوا له في الثغور ، حتى إذا كان نفير الحروب تقدموا الصفوف ، يقتلون أعداء الدِّين الحنيف، ويستشهدون ، ورُبُطهم شاهدة على جهادهم ، يحمون حدود المسلمين ، وفيها يقرأون القرآن، ويتعبّدون ، ففي ثباتهم ومرابطتهم عبادة لله سبحانه ، وحصن الزهَّاد في أولاس(2) في منطقة طرسوس شاهد على دور المتصوِّفة الجهاديّ في تاريخهم قبل عصر المماليك.

والتَّديُّن سمة من سمات الشخصيَّة الإسلامية ، ومن تمام التَّديُّن أن يؤمن المسلم بالله حق الإيمان، وأن يؤمن بقضاء الله وقدره ، وقد بدت هذه السمة للشخصيَّة الإسلامية ، في شعر الزُّهد والتصوّف حيث تلمح في شعرهم الشخصيَّة المؤمنة بقضاء الله، وصبرها عليه : حلوه ومرّه ؛ رغبة في نيل رضى لله ، وقد عبَّر الحافظ المحدّث محيي الدِّين أبو المعالي ابن القَحَّاح عن هذه السمة من سمات الشخصيَّة الإسلامية ، فقال(3):

اصْبِرْ على حُلْوِ القَضَاءِ ومُرِّهِ　　واعْلَمْ بأَنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ
واثبُتْ، فكم أَمْرٍ أَقْضَّكَ عُسْرُهُ　　لِيْلاً فَبْشَّرَكَ الصَّباحُ بِيُسْرِهِ
واضْرَعْ إلى اللهِ الكريمِ ولا تَسَلْ　　بَشَراً، فليس سِواهُ كاشفُ ضُرِّهِ

وتبدو سمة التَّديُّن في الرِّضى بقضاء الله ، والثبات ؛ حتى تتكشف الغمّة ، وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح ، كما أنها تلجأ إلى ربها ، وتتضرّع إليه ، فهو وحده كاشف الغمّة ، ومفرّج الكرب ، فهذه الشخصيَّة المتدينة شخصيَّة صابرة مجاهدة .

والمسلم يُمَرِّن نفسه على الجهاد بصبرها على المصائب ، لذا ترى الشاعر المسلم الزاهد ينيخ بباب الله ، طلباً لرضاه ، وقد عبر قاضي القضاة ابن التنسي المالكي عن ابتهال هذه الشخصيَّة المتدينة لله تعالى ، وقد حلَّ بالأمة الطاعون ، فقال(4):

---

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات - الشام، ط2، دار المعارف، القاهرة، 54 .

(2) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، 54/1 .

(3) تاج الدِّين السَّبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ط2 (ب.ت)، 93/9، توفي ابن القحَّاح سنة 741هـ.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 539/15 . وابن التنسي هو: أحمد بن محمد بن محمد بن محمد الزبيدي الإسكندراني المالكي، ناصر الدِّين ابن التنسي: قاض من أهل الإسكندرية (740 – 801) الأعلام للزركلي 1/ 225.
استبقه: احفظه ضنَّ: بخل .

إلَهَ الخَلْقِ قد عَظُمَتْ ذُنُوبي   فسامِحْ ما لِعَفْوِكَ من مُشَارِكْ
أَغِثْ يا سَيِّدي عَبْداً فَقِيراً   أَنَاخَ بِبَابِكَ العالي ودَارِكْ

فالمسلم عبد فقير لله ، ينيخ من سفره ببابه ، طلباً لرضاه ، وطمعاً في غفران ذنبه، فليس غير الله من يُقصد بابه ، وتُطلب مغفرته.

والشخصيَّة المتدينة تؤمن بأن الرِّزق مقسوم من عند الله ، كما تؤمن بأن الفقر خير من غنىً يورث عبودية ، حيث يعبِّر صفيُّ الدِّين بن عبد المؤمن البغدادي عن هذا التَّديُّن بقوله([1]):

لا تَرْجُ غَيْرَ اللهِ سُبحانَهُ   واقطَعْ عُرَى الآمالِ مِنْ خَلْقِهِ
لا تَطْلُبَنَّ الفَضْلَ مِنْ غَيْرِهِ   واضْنُنْ بماءِ الوَجْهِ واسْتَبْقِهِ
فالرِّزقُ مَقْسُومٌ وما لامْرِئٍ   سوى الذي قُدِّرَ مِنْ رِزْقِهِ
والفقرُ خَيْرٌ للفتى من غِنىً   يكونُ طولُ العمرِ في رِقِّهِ

والشخصيَّة المتدينة زاهدة في المال ، ومتع الحياة ، تحرص على التوازن والاعتدال ، ولا تتخلَّى عن واجباتها تجاه ربها والناس . فالزُّهد جهاد ، والجري على رزق العيال جهاد أيضا ، والشخصيَّة المتدينة تعطف على الصغير الذي لا يملك من أمره شيئاً ، ولا يستطيع التصرّف في حياته ، حتى يعتريه الزُّهد ، لنجد البوصيري - ورغم تزهده - يعبر عن هذه الشخصيَّة المتدينة من خلال حرصها على الصغار ، فيمدح وزيراً ، ويستغيث به لينتشل صغاره من العوز والفاقة، وقد زادوا على العشرة، فيقول[2]:

أيُّها الصَّاحبُ المُؤَمَّلَ أدْعُو   كَ دُعَاءَ استغاثَةٍ واسْتِجَارَه
أثْقَلتْ ظهريَ العيالُ وقد كنـ   ـتُ زماناً بهم خفيفَ الكارَه
ولو أنِّي وحدي لكنتُ مُرِيداً   في رِباطٍ أو عابداً في مغَارَه

فحمله ثقيل يوجب عليه السعي لرزق عياله ، والشخصيَّة المتدينة تحرص على رزق عيالها ؛ فالسعي في رزق العيال جهاد ، كما أن الانقطاع في الأربطة للعبادة جهاد أقعده عنه سعيه لرزق عياله.

كما تبدو في شعر الزُّهد والتصوف ملامح الشخصيَّة العلمية ، فالعلم جهاد ، وكما أن الزُّهد جهاد، فالعلم أيضا جهاد ، فالشخصيَّة العلمية دائمة الدرس والتحصيل ، دائمة الذّكر ، أجمل

(1) ابن العماد: شذرات الذهب، 121/6 (وهو شاعر عراقي توفي سنة 739 هـ) .

(2) البوصيري : الديوان 78 . الكاره: الحِمْل . المريد: مَن انقطع إلى الله عن نظر واستبصار وتجرد عن إرادته . وفي هامش الديوان قال : في الشطر الأول خلل عروضي.

صفاتها الإدفوي حين وصف ابن دقيق العيد بأنه : "طالما لازم السهر حتى أسفر وجه الإصباح، مشتغلاً بالذِّكر والفكر" ، فقال فيه[1]:

وتُبْدِي له الدُّنيا من الحُسْنِ جُملةً — يَهيمُ بها النُسَّاكُ لو شاهدوا البَعْضَا
فيُعْرِضُ عنها لاَهِياً عَنْ جَمَالِهَا — ويُوسِعُها بُعْداً، ويَرْفُضُها رَفْضَا
ويَسْهرُ في ذِكرٍ وفِكْرٍ وفي عُلاً — ومَنْ باتَ صَبَّاً بالعُلا جانبَ الغَمْضَا

فهو قد أعرض عن الدُّنيا بجانبها الحسيّ ، واقبل عليها بجانبها الروحي ، يُؤْثِر الفكر ، والذِّكر في الليل ، حتى يجفوه النّوم ، متقرباً بسهره وعلمه إلى الله والنّاس.

وهذه الشخصيَّة الإسلامية التي تجمع بين حقوق الله وحقوق العباد ، وبين متطلبات الحياة ومتطلبات الذّكر ، بعيداً عن المغالاة ، هي شخصيَّة استساغها قاضي القضاة بمصر والشام ، الشِّهابي ابن الفرفور - أحمد الفرفوري[2] - حين مدح الأشرف قانصوة الغوري ، وقد رأى الفرفوري أن الشخصيَّة الإسلامية المعتدلة تتمثل في هذه الشخصيَّة التي تجمع بين الدِّين والدُّنيا ، فقد أحسن تدبير ملكه ، ولم يهمل رعاياه ، وكان إذا فرغ من شؤون رعيته قضى ليله ساهراً ، ذاكراً عابداً ، يتلو الأوراد، يُمَجِّد خالقَه ويسبِّحه ، فيقول[3]:

يُدَبِّرُ أمْرَ المُلْكِ منْهُ رَوِيَّةً — يُريكَ بها اللهُ الصَّوابَ فَتُرْشِدُ
وتَجْلسُ في الشُّورى مع الأُمَرَاءِ في — نَهَاركَ للمُلْكِ الشَّريفِ تُمَهِّدُ
وتستقبلُ الأَذْكَارَ بِاللَّيْلِ سَاهِرَاً — بتَرْتيبِ أَوْرَادٍ بِها تَتَعَبَّدُ

فالغوري قد قسم وقته : ليله ونهاره ، إلى قسمين : قسم لحكم الرعية ، وقسم للعبادة والتهجد والتسبيح - دون أن ينسى نصيبه من الدنيا - فقال فيه[3]:

فتستغرقُ الوقْتَيْنِ حُكْماً وحِكْمَةً — فتَجْهَدُ، أمَّا في الدُّجا تَتَهَجَّدُ
فَذِكْرٌ وَتَسْبِيحٌ وتَمْجِيدُ خَالِقٍ — وتَقْديسُهُ، لا لَغْوٌ فيه ولا دَدُ

وهذه الشخصيَّة المعتدلة الوسطية هي طريقة السلف الصالح ، طريقة الخلفاء الراشدين ، مَنْ حملوا دين الله إلى الآفاق ، ودافعوا عنه ، وسجل ذلك الفرفوري ، فقال[4]:

---

(1) الإدفوي: الطالع السعيد 568.

(2) نجم الدِّين الغزي: الكواكب السائرة 141/1. وهو قاضي القضاة، أحمد بن محمود بن عبد الله، ولد سنة 852هـ، وتوفي سنة 910هـ، ولي قضاء دمشق ثم قضاء دمشق ومصر معاً.

(3) السابق 142/1 .

(3) نجم الدِّين الغزي: الكواكب السائرة 142/1 .

(4) السابق 142/1 .

فَلِلْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِمِثْلِ ذاَ مآثِرُ تُرْوى عَنْهُمُ لَيْسَ تجْحَدُ

والتفاضل بين المسلمين هو في التقوى ، والشخصيَّة المتدينة تؤمن بذلك ، فَنِعْم المماليك من تعلَّموا القرآن ، ولازموا الأوراد ، وأحبوا أهل العلم والفضل والتُّقى ، فترددَّوا عليهم ، وصاحبوهم ، وقد مثلت هذه الوسيطة في شخصيَّة الغوري ، الذي لم يلهه الحكم عن الزُّهد والعبادة ، كما لم يصرفه تدينه وزهده عن رعيته وحكمها ، بل جمع بينهما ، ليمثل هذا الاعتدال، فقال[1]:

ونِعْمَ المماليكُ الذين تَعَلَّمُوا وقد لازَمُوا الأوْرَادَ حتى تَعَوَّدُوا
مُحبٌّ لأهلِ العلْمِ والفَضْلِ والتُّقى بِحَيْثُ إليْهِم دائماً يَترددُ
كَذا أولياءُ اللهِ أيضا يُحبُّهمْ يدعو له في ورْده ويُمَجّدُ

والسلطان قائد الأمة ، تتجسّد فيه شخصيَّتها، فصلاح السلطان صلاح للأمة ، وشخصيَّة الأمة تمتاز بالاعتدال ، وقد تجلّت هذه الشخصيَّة الوسطية المعتدلة ، للأمة في الملك المؤيد صاحب حماة، وبدا فيه ما تميزت به الشخصيَّة الإسلامية من زهد وورع وتقوى ، فرغم أعبائه الجسمية في الحكم والتصّدي لأعداء الأمة إلا أنه لم ينس حقوق العباد ورب العباد ، فصور ابن نباته هذه الملامح للشخصيَّة الإسلامية قائلاً[2]:

مَليكٌ سَمَتْ عيناهُ للنُّسك والعُلَى فكانَتْ قَليلا من دُجى الليلِ ما تَكْرَى
وأَعْذَرَ في هَجرِ التَّنعّم نَفسَهُ وقال لِلآحيه: لعَلَّ لها عُذْرا
على حين أعْطاف الشَّبيبة لدنه وروضتنا في المُلْك أو نَفْسِها خَضْرا
وما زالَ طَهْرَ الفعْلِ حتَّى تَشَبَّهَتْ فِعَالُ رَعاياهُ فَكانَ يَرى طُهْرا

فمليكه زاهد عابد ، يثني عليه قيامه الليل وتركه نعم الحياة وملذّاتها ، وقد صار هذا ديدنه ، حيث تشبهت به رعيته ، فغدت لا ترى سوى الطهر ، ورغم أن الشباب في مثل سنة يقبلون على الحياة ، ينهلون من لذّاتها ، إلا أن الشخصيَّة الإسلامية الوسطية تزهد فيها ، زهداً حقيقاً ، رغم توفر أسبابها؛ فقد توفر لديه عنصرا الشباب والملك ، قال ابن نباته[3]:

تزهَّدَ حيثُ العُمْرِ والمُلْكُ مُقْبِلٌ وقد قَلَّ من لا قاهُما مُتَزَهِّدا

(1) السابق 142/1 .
(2) ابن نباتة: الديوان 195 .
(3) ابن نباتة: الديوان 140 .

والشخصيَّة الإسلامية حين تزهد في الدُّنيا ، تعبّر تعبيراً واضحاً عن رغبتها في حياة فردوسية خالدة وعد بها ربّ النّاس ، لتنطلق الشخصيَّة الإسلامية من نفس كبيرة لا تتسع لها حياة الدُّنيا ، ومغانمها ، بل تنشد دار المستقر ونعيمها ، وقد جسد هذا تقي الدِّين أبو الحسن السَّبكي ، فقال[1]:

لعَمْرُكَ إنَّ لي نَفْسَاً تَسَامَى　　　إلى ما لَمْ يَنَل دَارَا بنُ دَارَا

فَمِنْ هذا أرى الدُّنيا هَبَاءً　　　ولا أرضى سوَى الفِرْدَوْسِ دَارا

فالشخصيَّة المؤمنة العابدة ترجو لقاء الله ، وتتوق إلى حياة أعظم وأغنى ، تتوق إلى حياة الخُلد في الفردوس الأعلى ، ففي سبيلها تحتقر الدُّنيا ، وتتسامى فوق ملك وجاه الملك الفارسي القديم" دارا بن دارا" .

والآخرة دار حياة ومستقر ، تتوق إليها الشخصيَّة الإسلامية ، وهذه الحياة الخالدة هي التي دفعت ابن الوردي ليهجر النوم في سبيلها ، وليحقر كل جهد من أجلها، بل تقنع الشخصيَّة الإسلامية الزاهدة الطامحة لِجنة الخلود بكسرة خبز تغنيها عن ملك كسرى ونعيمه ، وبشربة ماء تغنيها عن بحر كثير الماء ، قال ابن الوردي[2]:

واهْجُرِ النَّوَم وحَصِّلْهُ، فَمَنْ　　　يَعرِف المطلوبَ يَحْقِر ما بَذَلْ

مُلْكُ كِسْرى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةٌ　　　وعَنِ البَحْرِ ارْتِشافٌ بِالوَشَلْ

فما فائدة سعة العيش، إن لم تسع المسلم رحمة ربه، ؟!! قال ابن نباته[3]:

مَا نَافِعِي سَعَةٌ في العَيْشِ أو حَرَجٌ　　　إن لم تَسَعْني رُحْمَى الوَاحِدِ الصَّمَدِ

ومن ملامح الشخصيَّة الإسلامية في شعر الزُّهد أن تؤثر عبادة الله على ما سواها ، في زمن وصل المال فيه عند كثير من الناس إلى مرتبة الألوهية ، فعبدوه من دون الله : في سبيله قامت الحروب ، وحِيكَت الدسائس والمكائد ، وأَطَلَّت برؤوسها الفتن ، فمن يزهد بالمال حقّاً ، ويجاهد ضد سلطانه ، يكن عند الله من الأغنياء المجاهدين ، قال ابن نباته[4]:

يا جَامِعَ المالِ إنَّ العُمْرَ مُنْصَرِمٌ　　　فَابْخَلْ بِمَالِكَ مَهْمَا شِئْتَ أو فَجُدِ

كمْ واثِقٍ بِاللَّيالي مَدّ رَاحَتَهُ　　　إلى المُرَامِ فَنَادَاهُ الحِمَامُ قَدِ

فالعمر منصرم ، ولن ينفع المالُ صاحبَه عند لقاء ربه ودُنوّ أجله.

---

(1) محمد الشوكاني: البدر الطامع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط دار المعرفة، بيروت(ب، ت) 468/1، وتقي الدين هذا هو: علي بن عبد الكافي ت756هـ .

(2) ابن الوردي: الديوان 338 .

(3) ابن نباته: الديوان 125 .

(4) ابن نباته: الديوان 125 .

كما مجَّد شعر الزُّهد الشخصيَّة الإسلامية التي تحرص على رضى الله ، فقد ذمّ هــذا الشعر من يتكالب على المال ، ويعيث في سبيله في الناس فساداً ، ولتجد الشخصيَّة الإســلامية التي تقبل بالوسطية ترفض الجشع والظلم ، قال أبو الفداء صاحب حماة يستجير بالله من ظلــم لؤلؤ صاحب المكوس(1):

قَلْبِي لَعَمرُ اللهِ مَعْلُولُ — بما جَرَى للنّاسِ مَع "لولو"
يَا رَبّ قَدْ شرّدَ عَنَّا الكرَا — سَيْفٌ على العَالَمِ مَسْلُولُ
ومَا لِهَذَا السَّيْفِ مِنْ مَغْمَدٍ — سِوَاكَ يَا مَنْ لُطْفُهُ السُّولُ

ومن ملامح الشخصيَّة الإسلامية أن تهرع إلى ربها ، ترجو رحمته ، فكما ضرع المسلمون إلى ربهم لينجيَهم من ظلم الأمير لؤلؤ ، فقد ضرعوا إليه ليؤمنهم من خوف ، وليكشف عنهم الغمة ، وذلك حين رأى الناس النار مشتعلة في المدينة المنّورة إثر الزلزال الذي ضربها سنة654هـ ، فقد عاد المسلمون إلى ربهم ، وأقلعوا عن المعاصي ، وتقربوا إلى خالقهم بالطاعات ، حتى خرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة ، فتاب أهل المدينة ، ولم يعد يُسمع فيها ربــاب ولا دُفّ ، فقــال بعضهم(2):

يا كاشفَ الضُرِّ صَفْحاً عن جَرائمنا — لَقَدْ أَحَاطَتْ بنا يَا رَبِّ بَأْساءُ
نَشْكو إليكَ خُطُوبَاً لا نُطيقُ لها — حَمْلاً، ونَحنُ بها حَقّاً أحقَّاء
زَلازِلاً تَخْشَعُ الصمُّ الصِّلابُ لها — وكَيْفَ يَقْوَى على الزَّلزَالِ شَمّاء
أَقَامَ سَبْعاً يَرُجُّ الأَرْضَ فانْصَدَعَتْ — عَنْ مَنْظَرٍ مِنْهُ عَيْنُ الشَّمْسِ عَشْواءُ

فالشخصيَّة المتدينة تعود إلى خالقها ترجو صفحه مما لحق بها ، والشاعر في تسليمه بقضاء الله ، في خشوع وخضوع ، يعترف بأن حال المسلمين تستحق ما ينزل بها ، قال تعالى : "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة"(3).

كما تجلت في شعر الزهَّاد ملامح الشخصيَّة الإسلامية التي تشتاق إلى خالقها ، وتتمنى لقــاءه ، وقد عبر الشاعر عن هذا بما أصاب روحه من صدأ ، لم يجد له سوى التراب فيجلو نفسه ، قال ابن نباتة(4):

---

(1) أبو الفداء : المختصر 108/4 .

(2) أبو شامة المقدسي : الذيل على الروضتين ، ط2 دار الجيل ، بيروت 1974، 193. وانظر: أبو المحاسن: النجوم 18/7 - 19.

(3) سورة الأنفال 25 .

(4) ابن نباته : الديوان 135 .

وقد صَدِئتُ وَلِي تَحْت التُّرابِ   جَلاً إنَّ التُّرابَ لَجلاَّءُ كُلَّ صَدِي

فقد فرَّ من الحياة الفانية إلى الحياة الخالدة عند الله ، ففيها تتجدد نفسه ، وهي المستقرُ والسعادة . ومن سمات الشخصيَّة الإسلامية الفرار من لذائذ الدُّنيا التي لا تعقب إلا الضعف والهزال، لذائد ظاهرها لذّة وفي باطنها السمُّ الزُّعاف، قال ابن نباته[1]:

مَالَي أُسَرُّ بِيَومٍ نِلْتُ لَذَّتَهُ   وَقَدْ ذَوَى مَعَهُ جُزْءٌ منَ الجَسَدِ

لا تُخْدَعَنَّ بِشَهْدِ العَيْشِ تَرْشُفُهُ   فَأيُّ سُمٍّ ثَوَى فِي ذَلكَ الشَّهْدِ

فهذه اللذائذ كالسمِّ في العسل ، تودي متعتها بمن نالها ؛ لذا يزهد المسلم بالدُّنيا ومتعها ، ويرغب بالآخرة ، وقد سجل عبد الملك الأرمنتي القوصي تعلُّقَ المسلم بعفو ربه في قصيدة له ، فــأدار حواراً بينه وبين نفسه التي تلومه على حاله المعوجة ، فقال[2]:

قالت لِيَ النَّفْسُ وَقَدْ شَاهَدَتْ   حَالي لا يَصْلُحُ أَوْ يَسْتَقِيم

بِأيِّ حَالٍ نَلْتَقِي رَبَّنَا   والحَاكِم العَدْلُ هُنَاكَ الغَرِيم

فنفس الشاعر ترى حاله لا يصلح ولا يستقيم ، فتساؤله بأي حال سنلتقي ربنا ، ولم نتزود لهــذا اللقاء ، فالشخصيَّة المسلمة المتدينة تُوقِنُ بأنها ستقف أمام الله الحاكم العدل غريمهــا ، فكيــف سيكون الموقف ؟! ولكنها لا تقنط من رحمة الله ، بل تطمع في رضاه ، فيقول:

فَقُلتُ حَسْبِي حُسْنُ ظَنِّي   بِهِ يُنِيلُنِي مِنْهُ النَّعيمَ المُقيم

ويستمر في حواره مع نفسه ، فتجيبه مستنكرة مجاهرته بأعماله ، حيث تبدو ملامح الشخصــيَّة الإسلامية التي تقر بذنوبها فيقول:

قَالَتْ وَقَدْ جَاهرْتَ ؟! حتى   لقد حُقَّ لهُ يُصليكَ نارَ الجَحيمْ

فيعلن الشاعر عن طمعه بعفو ربه ومغفرته ، فخالقه بحاله عليم ، ليبدو استسلامه لخالقه ، فيقول:

قلتُ: معاذَ اللهِ أنْ يَبْتَلِــي   بنارِه وهو بِحَــالـــي عَــليم

فمن سمات الشخصيَّة الإسلامية أن تحسن الظن بخالقها ، وأن ترجو عفوه ومغفرته ، وأن تتوسل إليه ليدخلها جنته ، وقد تجلت في حوار الشاعر مع نفسه صورة علاقة الإنسان بخالقه ، وخوفه منه ، وطمعه بنيل رضاه.

---

(1) السابق: 126.

(2) الإدفوي: الطالع السعيد 340. وذكر وفاته بقوص سنة 722هـ .

كما صور الصرصري سمة التوبة والرغبة في رضى الله ، كإحدى ملامح الشخصيَّة الإسلامية في شعر الزُّهد فخاطب نفسه ، طالباً منها التوبة والاستقامة ، واستدراك ما ضيعت في جنب الله، فيأمرها بالصدق ، والسعي إلى التقوى ؛ كي ينال رضوان ربه ، كما يأمرها بالقناعة برزقها المقسوم ، فيقول[1]:

يا نَفْسُ تُوبِي إلى الرَّحْمنِ مُخْلِصَةً ... ثُم اَستَقِيمي عَلَى عَزْمٍ يُنَجِّيكِ
واستدركي فارطَ الأوْقَاتِ واجْتَهِدي ... عساكِ بالصدقِ أن تَحْمي مَساويكِ
واسْعَي إلى البرِ والتقْوى مُسارِعةً ... فربما شُكِرَتْ يَوْماً مساعيكِ
بل اقْنَعِي بِكَفافِ الرِّزْقِ رَاضيةً ... فَكُلُّ ما جَازَ ما يَكْفِيكِ يطغيكِ

كما بدت سمة التوبة والرغبة في رضى الله ، في الشخصيَّة الإسلامية حين يأمر الشاعر نفسه بالرضى والقناعة بما حصلت ، وحين يذكِّرها بالموت ، وغصصه ، وظلمة القبر ووحشته ، وتفرّده فيه وقد عاد المشيعون وخلفوه وحيداً ، فيقول:

ثم اذْكُرِي غُصَصَ المَوْتِ الفَظِيعِ ... يَهُنْ عَليْكِ أَكْدارُ دُنْيا لا تُصَافِيكِ
وَظُلمةَ القَبْرِ لا تَنْسَيْ وَوَحْشَتَهُ ... عِنْدَ انْفِرَادِكَ عَنْ خِلٍّ يُوازِيكِ

واستعداداً للقاء ربها في يوم الحاجة إلى مغفرته ، يطلب من نفسه عمل الصالحات ، وإحسان الظن بالرحمن ، فحسن الظن بالرحمن يدخلها الجنّة ، فيقول :

والصالحاتِ ليومِ الفَاقَةِ ادَّخِرِي ... في مَوْقفٍ لَيْسَ فيه مَنْ يُواسيكِ
وأَحْسِني الظَنَّ بالرَّحمنِ مُخلصَةً ... فحسنُ ظَنِّكِ بالرَّحْمنِ يَكْفيكِ

ولنا أن نتصور عمق إيمان الشخصيَّة الإسلامية من خلال هذا الجو الإيماني ، وهذا التجرد من الدُّنيا الفانية ، والشاعر يصور لنا الموت ، وظلمة القبر ووحشته ، وحين يتجرد من زيف الدُّنيا تصفو روحه ؛ فيطمع برحمة ربه ، فيأتي الشاعر بكلمة "الرحمن" لتبعث فيه الطمأنينة والرّاحة ، لاسيما وهو قد ادخر في حياته أعمالاً صالحة لآخرته.

وقد جمع ابن الوردي ملامح الشخصيَّة الإسلامية في شعر الزُّهد في قصيدة له، دعا فيها إلى الزُّهد والنُّسك . ونصح الناس بهجر الدُّنيا وزخارفها ومتعها ، وحثهم على السعي إلى الآخرة بالعمل الصالح والتقوى ، وممارسة الحياة والعمل نوع من العمل الصالح ، فقال[2]:

اعْتَزِل ذِكْرَ الأَغَاني والغَزَل ... وَقُلِ الفَصْلَ وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ
وَدَعِ الذِّكْرَى لأيَّامِ الصِّبا ... فَلأَيَّامِ الصِّبا نَجْمٌ أَفَلْ

---

(1) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار صادر ، بيروت 1974، 315/4 .

(2) ابن الوردي: الديوان 338 .

وبَغَّضَ بالعشْقِ وَحُبِّ الخمرة ، فقال:

وافْتَكِرْ في مُنْتَهى حُسنِ الَّذي أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدْ أَمْراً جَلَلْ

واهْجُرِ الخَمْرَةَ إنْ كُنْتَ فَتَىً كَيْفَ يَسْعَى في جُنُونٍ مَنْ عَقِلْ

وهو يدعو إلى تقوى الله ، ففيها يحقق الإنسان السعادة، ويصل إلى غايته في الآخرة، وهي الجنّة، فيقول:

واتّقِ اللهَ، فتقوى الله ما جاوَزَتْ قلب امْرِئٍ إلاّ وَصَلْ

كما يحضّ على طلب العلم ، وقيام الليل ، وهجر النّوم ، فيقول :

واهْجُرِ النَّومَ وحصِّلْهُ ، فَمَنْ يعرفِ المطلوبَ يَحْقِرْ ما بَذَلْ

وهو يدعو إلى الرضى بالقليل في الدُّنيا ، طلباً للكثير الدائم ، فنعيم الدُّنيا - مهما عظم – زائل ، ويُغْني عن كثيره القليلُ ، فيقول:

مُلْكُ كِسرى عَنْهُ تُغْني كِسْرَةٌ وعَنِ البَحْرِ ارْتِشَافٌ بالوشَلْ

ويدعو صراحة إلى ترك الدُّنيا رغبة في الآخرة ، فيقول:

واتْرُكِ الدُّنيا فَمِنْ عَادَاتِها تُخْفِضُ العَالي وتُعلي مَنْ سَفَلْ

عيشةُ الزّاهِدِ في تحصيلِها عيشةُ الجَاهِدِ بل هذا أَذَلْ

فعيشة الزاهد في الدُّنيا ، كعيشة الجاهد المنهمك بجمع المال ، فكل منهما لا يأكل ولا يلبس إلاّ ما كتبه الله له ، بل الجاهد في طلب الدُّنيا أذلّ عند الله والناس ، لأن جمع المال يتطلب التـذللّ ، والخضوع أحياناً[1].

والشاعر يتعجب لمن ينتظره الموت كيف يغتّر بالدُّنيا ، فيقول[2]:

إنَّ مَنْ يَطلُبُهُ المَوْتُ على غُرَّةٍ مِنْه جَديرٌ بالوَجَلْ

حَارَتِ الأَفْكارُ في قُدْرَةِ مَنْ قدْ هَدَانَا سُبُلاً عَزَّ وَجَلْ

كتبَ الموتَ على الخَلْقِ فَكَمْ فَلَّ مِنْ جَمْعٍ وأفْنَى من دُوَلْ

فعلى المسلم أن يخشى لقاء ربه ، فالموت قادم على حين غرّة ، وهو حق علينا، يفرِّق الأحبـة ويفني الدول القوية .

---

(1) هدى الكومي:القيم الروحية 245/2 .

(2) ابن الوردي: الديوان 338 .

ثانياً: ملامح الشخصيَّة الإسلامية في الشعر الصوفي:

وفي الشعر الصوفي الذي لا مغالاة فيه ، نجد التَّديُّن أبرز ملامح الشخصيَّة الإسلامية ، بحيث يكون الله ورسوله أحب إليها من كل شيء ، لذا أحب المتصوِّفة الله ورسوله ، حبّاً ملأ علـيهم حياتهم ، فرأوا الدُّنيا من خلاله ، وقامت علاقتهم بها على هذا الحب ، فبه يتقربون إلى خالقهم ، ويبرزون صورة الشخصيَّة الإسلامية المتدينة ، فقد صارت شعائر الدِّين بالنسبة إليهم تعبيراً عن هذا الحب ، وحتى فريضة الحج لديهم صارت تعبيراً عن حب صاحب البيت ، لا مجرد طواف حول الكعبة ، والقلب خرب مقفر ، قال أبو العباس البغدادي[1]:

لستُ منْ جُمْلَة المُحبِّينَ إنْ لَمْ أَجْعَل القَلْبَ بَيْتَهُ والمُقَامَا
وَطَوَافِي إجَالَةُ السرِّ فيه وهْو رُكْني إذَا أَرَدْتُ استِلامَا

فقلب الشاعر هو كعبة الله ، وبيته الذي يعبده فيه ، وقد جعل طوافه واستلامه الركن في الطّواف هو التفكرّ في الله .

وهذا الحب الإلهي دعا إليه المتصوِّفة ، وعزوا أفعالهم إليه ، وباسمه ، ونظروا إلى الدُّنيا والدِّين من خلاله ، وهذا الحب هو مطلب ابن الخيمي ومآل التقصّي لديه ، حيث قال[2]:

يا مَطْلَبَاً لَيْسَ لي في غَيْرِه أَرَبُ إلَيْكَ آلَ التَّقَصِّي، وانْتَهى الطَّلَبُ

ويعبر ابن الخيمي في شعره عن هذا الحب كأبرز ملامح الشخصيَّة الإسلامية في الشعر الصوفي، فتبدو معاني الوجد والشوق إلى الحبيب ، وما يعانيه من آلام مبرحة في سبيل محبوبه ربّ العزّة سبحانه ، فيقول:

وَ مَا أَرَانـي أَهْلاً أَنْ تُوَاصِلَني حَسْبِي عُلُوّاً بِأَنِّي فِيكَ مُكْتَئِبُ
لَكِنْ يُنَازِعُ شَوْقِي تَارَةً أَدَبِي فَأَطْلُبُ الْوَصْلَ لَمَّا يَضْعُف الأَدَبُ
وَلَسْتُ أَبْرَحُ في الحَالَيْنِ ذَا قَلَقٍ نَامٍ وَشَوْقٍ لَهُ فِي أَضْلُعِي لَهَبُ
ومَدْمَعٍ كُلّمَا كَفْكَفْتُ صَيِّبَهُ صَوْنَاً لِذكْرِك يَعْصِيني وَيَنْسَكِبُ
ويَدَّعِي فِي الْهَوَى دَمْعِي مُقَاسَمَتِي وَجْدِي وَحُزْنِي، ويَجرِي وَهْو مُخْتَضِبُ
كالطَّرْفِ يَزْعُمُ تَوْحيدَ الحَبِيبِ وَلا يَزَالُ فِي لَيْلِه لِلنَّجْمِ يَرْتَقِبُ

---

(1) لطائف المنن: 234 . وانظر: ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق 3809/1 .

(2) الكتبي: فوات الوفيات 414/3 . أرب: حاجة أو غاية . وابن الخيمي هو:" محمد بن عبد المنعم، توفي سنة685 هـ" .

وتبدو سمة التَّديُّن هذه في الشوق إلى رسول الله عليه السلام ، فالشاعر يستحلف الركب ليدلوه على مواضع الحبيب بذي سلم ، وكاظمة في طريق الحج ، ليؤدي تجاهها بعض ما يجب ، فيمرّغ خده بثراها ، ويقضي منها وطراً فيقول:

باللهِ إنْ جُزْت كُثباناً بِذِي سَلَمٍ قِفْ بِي عَلَيْها وَقُلْ لِي هَذِه الكُثُبُ
لِيَقْضِيَ الخَدُّ مِنْ أَجْرَامِها وَطَرَاً فِي تُرْبِهَا ويُؤَدِّي بَعْضَ مَا يَجِبُ
ومِلْ إلى البَانِ مِنْ شَرْقِيِّ كَاظِمَةٍ فَلِي إلى البَانِ مِنْ شَرْقِيِّهَا أَرَبُ
وخُذْ يَمِينَاً لِمَغْنَىً تَهْتَدِي بِشَذَا نَسِيمِهِ الرَّطْبِ إِنْ ضَلَّتْ بِكَ النُّجُبُ

فهدف الشاعر واضح ، وهو إطفاء شوقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، يدله على هذه الأماكن ويرشده إلى هذه الدِّيار شذا النسيم الرطب الذي يفوح منها ، إذا ما ضلّت به النوق النُّجُب، التي اختارها خصيصاً لهذه الرحلة الجليلة .

كما تبدو سمة التَّديُّن كإحدى ملامح الشخصيَّة الإسلامية في الشعر الصوفي ، في عشق الشاعر وهيامه برسوله الكريم ، وتمسحه بترب يذكره بحبيبه عليه السلام ، فيقول[1]:

سَلامٌ عَلَى بُعْدِ المَزَارِ وَقُرْبِهِ سَلامُ فَتَى مَا زَالَ عَنْ عَهْدِ حُبِّهِ
يُعَلِّلُهُ إنْ فَاتَ طِيبُ وَصْلِكُمْ لَذِيذُ هَوَاكُمْ فِي سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ
ويلْقَى بِخَدَّيْهِ النسيم لأنَّهُ بِمَغْنَاكُم قَدْ جَرَّ ذَيْلاً بِثَوْبِهِ
ويَعْتَرِضُ الرُّكْبَانُ عَلّ مُبَشِّرَاً بِقُرْبِكُم يَقْضِي بِتَفْرِيجِ كَرْبِهِ

فهو يلقي على المزار سلام عاشق ما يزال على حبه ، يستمد قوته من هذا الحب ، يمرّغ خديه بأرض المحبوب ، يعترض الركبان ، يسأل عمن يبشره بقرب اللقاء ، فيفرِّج كربه .

ومن مستلزمات سمة التَّديُّن في الشخصيَّة الإسلامية استعذابها الألم في سبيل الله، حتى الحُمَّى يحيل الشاعر الخيمي آلامها وأوجاعها إلى معاني الصبابة والشوق ، فيقول[2]:

صاحِ قُلْ لِلطَّبِيبِ مَا هِيَ حُمَّى تِلْكَ نَارُ اشْتِيَاقِ قَلْبِي إِلَيْهِمْ
وخروجُ المياهِ مِنْ جِسْمِيَ المُضْـ نَى بُكَا أَعْيُنِ المَسَامِ عَلَيْهِمْ
مَا شَفَانِي بُكَاءُ عَيْنِي حَتَّى سَاعَدَتْنِي عُيُونُ جِسْمِي عَلَيْهِمْ

فهذا الحب الإلهي قد أحال حرارة الحُمَّى التي انتابت الشاعر إلى نار اشتياق ، شاركه فيه جسده باكياً ، فكأن العرق المتصبِّبَ منه بكاء مسامات جسمه ، وكأنَّ هذه المسامات عيون تساعد عينيه

(1) الكتبي : فوات الوفيات 421/3 .

(2) الكتبي: فوات الوفيات 421/3-422 .

على البكاء ، أفَيُطْفِئُ البكاء نار حبه وشوقه ، وهو الذي يطمح للشـــهادة فـــي ســـبيل محبوبـــه سبحانه؟! فيقول:[1]

متُّ بالحُبِّ شَهِيداً، فَعَسَى   فِي جِنَانِ الخُلْدِ أَنْ يَقْضِي دُخُولِي

وهو يرجو من هذا الحب وهذه الشهادة جنة الخلد .

وإنْ كان ابن الخيمي قد أبكى الحمى معه ، فإن شمس الدِّين الكوفي يشهد على حبه لله شهوداً عدولا ، يشهد سهاده ، ودمعه ، ونحول جسده ، وشوقه المبرح للقاء المحبوب، فيقول[2]:

شُهودُ غَرَامِي في هَوَاكَ عُدُولَ   سُهادٌ وَدَمْعٌ سَائلٌ وَنُحُولُ

وشَوْقِي إلى لُقْيَاكَ شَوْقٌ مُبَرِّحٌ   ولي شَرْحُ حَالٍ في الغَرَامِ يَطُولُ

وسمة التَّديُّن هذه تجعل الشاعر في شوق إلى لقاء محبوبه ، فتضرم روحه ، ويشتعل وجـــدها ، فقد ضاقت نفس الشاعر بالدُّنيا وطمح إلى لقاء ربه ، ونيل طيب وصاله وقد طال الفراق ، فشكا له ما يلقى وأشهد عليه دمعه ، فقال:

تُرَى هَلْ لَنَا بَعْدَ الفُرَاقِ تَآلُفُ   وَهَلْ لي إلَى طِيبِ الوِصَالِ وُصُولُ

لأَشْكُو إلَيْهِ مَا لَقِيتُ وَمَا الَّذِي   جَرَى لي وَدَمْعِي شَاهِدٌ وَدَلِيلُ

ويدلل الشاعر على شدة حبه وشوقه ، فيقسم أن حبه هذا وشوقه لا يمكن أن تحملهما رســـالة أو شكوى ، فهذا الشوق مضطرم لا يطفئه إلا اللقاء ، فيقول:

فَوَاللهِ مَا يُشْفِي المَشُوقَ رِسَالَةٌ   وَلا يَشْتَكِي شَكْوَى المُحِبِّ رَسُولُ

فالشاعر في سهاد دائم ، ودمع غزير ، أنْحل جسده وأضناه تباريح الصبابة ولواعج الغرام ، فلا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال، ما دام بعيداً عن الحبيب ، ولا يمكن لأحد أن ينوب عنه في حبه . فهو بمواجده يحاول الوصول إلى الذات الإلهية[3].

ويعلو الحماس الدِّيني لدى الشعراء ، يجاوبه صوت المزمار في حلقات الذكر ترغيباً في لقاء الله، وشوقاً إلى جنته ، وتخليصاً للنّفوس مما علق بها ، فيدفعها صفاؤها إلـــى الجهـــاد ولقـــاء الله ، فالشهادة طريق إلى لقاء الله ، ودخول جنته ، بنفوس طاهرة نقية ، عبّر عن هذا الشوق وغنّى به تقي الدِّين السرّوجي ، فقال وقد غُنّيَ بها فازداد تأثيرها[4]:

---

(1) السابق 421/3 .

(2) السابق 105/4 .

(3) ناظم رشيد: أدب العصور المتأخرة 74 .

(4) الكتبي: فوات الوفيات 197/2 .

أَنْعِمْ بِوَصْلِكَ لِي، فَهَذَا وَقْتُهُ ... يَكْفِي مِنَ الهِجْرَانِ مَا قَدْ ذُقْتُهُ
أَنْفَقْتُ عُمْرِي فِي هَوَاكَ وَلَيْتَنِي ... أُعْطَى وُصُولاً بِالَّذِي أَنْفَقْتُهُ
يَا مَنْ شُغِلْتُ بِحُبِّهِ عَنْ غَيْرِهِ ... وَسَلَوْتُ كُلَّ النّاسِ حِينَ عَشِقْتُهُ
كَمْ جَالَ فِي مَيْدانِ حُسْنِك فَارِسٌ ... بالسَّبْقِ فِيكَ إِلَى رِضَاكَ سَبَقْتُهُ
أَنْتَ الذي جَمْعَ المَحَاسِنَ وَجْهُهُ ... لَكِنْ عَلَيْهِ تَصَبّرُي فَرَّقْتُهُ
قَالَ الوُشَاةُ: قَدْ ادّعَى بِكَ نِسْبَةً ... فَسُرِرْتُ لَمَّا قُلْتُ قَدْ صَدَّقْتُهُ
بِاللهِ إِنْ سَأَلُوكَ عَنّي قُلْ لَهُمْ ... عَبْدِي ومُلْكُ يَدِي وَمَا أَعْتَقْتُهُ
أَوْ قِيلَ مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ فَقُلْ لَهُم ... أدْرِي بِذا، وأَنَا الذَّي شَوَّقْتُهُ

فالشاعر يطلب وصال ربه (الذّات الإلهية)، فقد ذاق الكثير من الحرمان ، وانفق عمـــره فـــي الهوى ، وشغل بحب الله عن كل ما سواه ، وسبق غيره في الوصول إلى رضاه ، وقد نفذ صبره في حب خالقه الذي جمع وجهه المحاسن ، ويسعده أن يصدق قول الوشاة ، وأن يكون عبد من أحبّ.

ويبدو الانتشاء بذكر الله ، والشوق إليه ، وهذا الطرب الذي يملأ صفوف الذاكرين الله كثيـــراً ، حين يردد المنشدون ابتهالاتهم ، ليملئوا الصفوف حماسة وإمعاناً في ذكر الله وتسبيحه ، بأبيات لعبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصي الصوفي المتوفى سنة 708 للهجرة ، حيث يقول[1]:

أَنَا أُفْتِي أَنَّ تَرْكَ الحُبِّ ذَنْبُ ... آثِمٌ فِي مَذْهَبِي مَنْ لا يَحُبُ
ذُقْ عَلَى أَمْرِي مَرَارَاتِ الهَوَى ... فَهْوَ عَذْبٌ، وَعَذَابُ الحُبِّ عَذْبُ
كُلُّ قَلْبٍ لَيْسَ فِيهِ سَاكِنٌ ... صَبْوَةٌ عُذْرِيَّةٌ مَا ذَاكَ قَلْبُ

ويقول[2]:

بَقَاءُ نَفْسِي فِي يَوْمِ النَّوَى عَجَبُ ... لأنَّ مَوْتِي مِنْ بَعْضِ الَّذِي يَجِبُ
ومَا بَقِيتُ ورُوحِي لَسْتُ أَمْلِكُها ... ولَيْسَ لِي فِي حَيَاتِي بَعْدَهُمْ أَرَبُ
رِضاءُ قَلْبِي أَنْ يَرْضُوا بِسَفْكِ دَمِي ... هُمُ هُمُ إِنْ رَضُوا فِي الحُبِّ أَوْ غَضِبُوا
والقُرْبُ والبُعْدُ مَا شَاءُوا فَدَيْتُهُمُ ... هُمُ الأَحِبَّةُ إِنْ شَطُّوا وإِن قَرُبُوا
وَهُمْ نِهَايَةُ آمَالِي ومُرْتَجَعِي ... إِلَيْهِمُ آلَ قَصْدِي وانْتَهَى الطَّلَبْ
كَرِّرْ حَدِيثَهُمُ يَا سَعْدُ فِي أُذُنِي ... فَلَسْتُ أَنْسَى وَلَكِنْ هَزَّنِي الطَّرَبُ

---

(1) الإدفوي: الطالع السعيد 324.

(2) السابق325.

فالشاعر - وقد ذاب وجداً بالمحبوب - يتعجب من بقائه حيّاً ، وقد نأى الأحبّة ، فلم يعد له غاية في الحياة ، ولكنه لا يملك روحه ، وهو يستسلم لقضاء محبوبه ، ويعشق هذا المحبوب ، ويقــدم روحه فداء له ، ويرضى أن يسفك دمه في سبيلهم سواء رضوا أو لم يرضوا ، ولكنه حــريص على رضى ربه ، فرضاه نهاية آماله ، ومقصده، وطلبه ، فيرجو سعداً وقد انتشى ، - وسعد هذا قد يكون المغنّي- أن يكرر ذكرهم على مسامعه ليزداد ، نشوة وطرباً ، لا نسياناً ، فذكرهم يزيده ولهاً ونشوة وطرباً.

خاتمة:

تحدثنا في دراستنا هذه عن ملامح الشخصية الإسلامية في شــعر الزهــد والتصــوُّف ، وقسمناه إلى قسمين : ملامح الشخصية الإسلامية في شعر الزهد أولاً ، ثم أعقبناه بحديثنا عــن ملامحها في الشعر الصوفي ، حيث بدت هذه الملامح دينية تحرص على التربية السليمة للأفراد، وبنائهم داخلياً بناء دينياً جهادياً ، وحماية عقائدهم من البدع والانحرافات ، لذا حرص المماليــك على بناء الأربطة على الثغور وشحنها بالعبَّاد المجاهدين ، لتكون معسكرات متقدمة في مواجهة الأعداء .

كما اتسمت الشخصية الإسلامية في شعر الزهد والتصوُّف في هذا العصر إضافة إلــى التديُّن بالثَّبات ، والنُّضج ، وامتدت في خط متصل مع شعر المدائح النبوية والأغراض الشعرية الأخرى في هذا العصر ، في دلالة واضحة على أنها شخصية مستمرة ثابتة نقية سوية ، لها نهج واضح تسير عليه ، ينطلق من كتاب الله وسنة نبيه ، والتاريخ الإسلامي العظيم ، وعبرت تعبيراً واعياً عن هذا الفكر في أغراضها الشعرية المختلفة . وفي ثبات هذه الشخصية واســتقامتها رد على الذين ظلموا هذا العصر في كل ما يتعلق به ، فشوَّهوا تاريخه عن قصــد ، انتقامــاً مــن المماليك الذين دحروا الصليبيين من بلادنا ، والذين استحق أن نسمى عصرهم "عصر الأفذاذ ".

المصادر والمراجع

1- **إبراهيم يحيى الشِّهابي**: الشخصيَّة العربيَّة، ط 1، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، 1981.

2- **ابن العماد**، شهاب الدِّين، أبو الفرج عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي، (1089هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرنؤوط، حققه وعلق عليه: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1412هـ.

3- **ابن الوردي**، زين الدِّين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر: الديوان، ط1، الجوائب، القسطنطينية، 1300هـ.

4- **ابن تغري بردي**، جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف (874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

5- **ابن نباتة**، الشيخ جمال الدِّين بن نباتة المصري الفاروقي (768هـ): الديوان، دار إحياء التراث العربي، بيروت (ب. ت).

6- أبو شامة المقدسي: الذيل على الروضتين، ط2 دار الجيل ، بيروت، 1974.

7- **أبو شامة المقدسي**، شهاب الدِّين، أبو أحمد عبد الرحمن بن اسماعيل (665هـ): الذيل على الروضتين، ط2 دار الجيل ، بيروت، 1974.

8- **أحمد سيد محمد**: الشخصية الإسلامية في الأدبين الفاطمي والأيوبي.ط 2، دار المعارف، القاهرة.

9- **أحمد لطفي السيد**: المنتخبات، مطبعة الأنجلو المصرية (ب.ت).

10- **الإدفوي**، كمال الدِّين أبو الفضل، جعفر بن ثعلب(748): الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، مراجعة: طه الحاجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، ، القاهرة، 2000.

11- **البخاري**، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر. تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3 سنة 1987.

12- **البوصيري**، شرف الدِّين أبي عبد الله محمد بن سعيد: الديوان، تحقيق محمد حسن بسج ، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت2005.

13- تاريخ الأدب العربي -عصر الدول والإمارات - الشام، ط2، دار المعارف، القاهرة،

14- **حامد عمار**: في بناء البشر، القاهرة، 1968.

15- **حلمي المليجي**:علم النفس المعاصر، دار النهضة العربيَّة، بيروت، 1972.
16- **خير الدِّين الزر كلي**: الأعلام،ط 3، بيروت ،1969.
17- **ريتشارد لازاروس**: الشخصيَّة، ترجمة، سيد محمد غنيم، ط 4، دار الشروق القاهرة، 1953
18- **سامية حسن الساعاتي**: الثقافة والشخصيَّة، بحث في علم الاجتماع، ط 3، دار الفكر العربي، القاهرة.
19- **السَّبكي** ، تاج الدِّين: طبقات الشافعية الكبرى، ط2 (ب.ت).
20- **سعد جلال**: المرجع في علم النفس، القاهرة، 1971
21- **شوقي ضيف**: الشعر وطوابعه على مر العصور، ط2، دار المعارف، 1984 .
22- **الشوكاني** ، محمد: البدر الطامع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط دار المعرفة، بيروت(ب، ت) .
23- **عبد الرحمن العشماوي**: علاقة الأدب بشخصية الأمة، مكتبة العبيكان، ط، 1، الرياض، 2003.
24- **عبد الرحمن العيسوي**: مقومات الشخصية الإسلامية و العربية و أساليب تنميتها، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 1986.
25- **عبير سفيان شرير**: الشخصيَّة الأندلسية في تراث الموحدين الشعري، رسالة ماجستير، 2004.
26- **عمر بن أبي ربيعة**: شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق: محمد محيي الدِّين عبد الحميد، ط 3، دار الأندلس، بيروت.
27- **عمر سليمان الأشقر**: كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد، ط 1، دار النفائس؛ عمان، 1992.
28- **عمر سليمان الأشقر**: معالم الشخصيَّة الإسلامية، ط 7، دار النَّفائس، عمان، 2000.
29- **غازي التوبة**: الأمة الإسلامية بين القرآن والتاريخ، ط 1، دار البشير، عمان، 1999.
30- **الغزي**، نجم الدِّين بن بدر الدِّين محمد الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1979
31- **فتحي أسعد نعجة**: الشخصيَّة الإسلامية في شعر المتنبي، ط1.
32- **الكتبي**، ابن شاكر: فوات الوفيات ، تحقيق: إحسان عباس ط دار صادر، بيروت، 1974.
33- **محمد التونجي**: المعجم المفصل في الأدب، ط دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.
34- **محمد كامل حتّة**: القيم الدِّينية والمجتمع، ط دار المعارف، (ب . ت).
35- **محمد محمود المدرِّس**: الشخصيَّة الإسلامية وموقعها اليوم بين النظم والعقائد، دار البشير، عمان، 1993.
36- **مسلم بن الحجاج النيسبوري**: صحيح مسلم، ط دار إحياء التراث. (ب، ت)، بيروت.

37- **ناظم رشيد**: دراسات في الأدب العربي في ظل الدولة الأيوبية ط1، دار المناهج؛ عمان 2004.

38- **نزار العاني**: الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، ط 1، دار الفرقان، عمان، 1998.

39- **هدى الكومي**: القيم الروحية في الشعر بمصر والشام فـــي العصـــر المملـــوكي، ط2، دار الإبداع، القاهرة، 2005.

40- **واصف أبو الشباب**: شخصية الفلسطيني في الشعر الفلســطيني المعاصـــر.ط 1، دار دار العودة بيروت، 1981.

* **المعاجم**:

(1) **ابن منظور**: جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت، 1955.

(2) **الفيروزأبادي**: مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، طبعة دار الكتـــب العلميـــة، بيروت، 1999.

(3) **الجوهري**، أبو نصر إسماعيل بن حماد: الصِّحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور،ط 2، 1957.

(4) **الزبيدي**، محمد بن محمد أبي الفيض مرتضى الحسيني: تاج العروس من شـــرح جـــواهر القاموس، ط الخيرية ، القاهرة، 1306هـ.

(5) **الزمخشري**، أبو القاسم محمود بن عمر: أساس البلاغة،تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود، ط دار المعرفة، بيروت،1979.

(6) **راتب أحمد قبيعة**: الأداء القاموسي العربي الشَّامل، إعداد هيئة البحث والترجمة بدار الراتب الجامعية، المشرف العام راتب أحمد قبيعة، بيروت، ط 1، 1977.

(7) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربيَّة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.